(قد) بين الاسمية والحرفية

التثنية والجمع

عبد الوهاب حسن حمد

كلية الاداب-اللغة العربية

الاسمية والحرفية معنيان متباعدان لا يلتقيان في كلمة داخل تركيب واحد، لأن الاسمية تعني وضوح الدلالة والإبانة عنها بالعلامات، والحرفية تعني الإبهام والافتقار وإيجاد المعاني في غيرها، فكان لكل معنى حرف يختص به، لذلك كان الأصل فيها البناء بخلاف الأولى. ولكني وجدت أن المعاني داخل التراكيب مرنة الحركة، إذ تسلب من لفظ، ويحل غيرها محلها، أو تكون زائدة على المعنى الأصلي فتزدحم في لفظ، فيجمد على حالة تلازمه، مما يعني أن الحدود التي تناولت الكلم العربي ليست ثابتة، وان الاستعمال هو الذي يحدد قيمة الكلمة ودلالتها، فقد تستعمل اسما أو حرفا أو فعلا بقرائن تظهر قسما على آخر، وتثبت معنى أو تسلبه وتمحيه ومن ذلك (قد) إذ استعملت اسماً بمعنى اكتف وانته، وحرف جواب للمتوقع وتوكيدا وتحقيقا وتقليلا وتكثيرا وتقريبا ونفيا، لذلك كانت موضوعا صالحا للبحث والدراسة، فجاء البحث مقسما على مبحثين، تناول الأول: الاسمية في (قد)، والأصل فيها وعلاقتها بقط، وعلة تخفيفها، ومعانيها. ودرس الثاني معاني الحرفية فيها وتأثيرها الزمني وعلاقتها بـ(نعم، بئس، هل، ربما، لما، ما، أل، لام الابتداء)، وشروط مجيئها في جملة الحال والقسم.

المبحث الأول

الاسمية في (قد)

تأتي (قد) بمنزلة حسب، ولكنها مبنية للعدول عن اصل معناها، وهو القطع بالحذف ودليل الاسمية فيها موافقتها للاسم (حسب) في معنى الكفاية، وذلك لأن "من دلائل الاسمية موافقة ثابت الاسمية في معناه دون معارض، كموافقة (قد) لحسب في قولهم: قد زيد درهم. فقد بمعنى حسب دون معارض وحسب ثابت الاسمية متمكن فيها فوجب كون (قد) اسماً[١]، لأن الاسم يسند إلى معناه الذاتي المستقل بمفهومه، ووظيفته في بناء الجملة عليه، لذلك كانت الاسمية ظاهرة في إضافة (قد) والنسبة إليها، لأنها في موضع الاسم فتكون "اسماً إذا كانت في موضع حسب نحو قولك: كأن قد، ونحو قولك قدك، من هذا أي حسبك" [٢].

وتكون بمعنى قطع وأغنى، ويحذف الفعل بعدها إذا دل عليه دليل كقول النابغة:

أزف الترحيل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

أي: وكأن قد زالت.

ويجوز أن تكون اسماً بمعنى حسب[٣]، وتكون مثل (قط) بمعنى حسب[٤]، وهو الاكتفاء. يقولون مالك عندي إلا هذا فقد، أي فقط[٥]. وقيل: " إن جعلت (قد) اسما شددته فتقول كتبت قدّا حسنة، وكذلك كسي

---

(١) شرح التسهيل: ١/٢٠.

(٢) المقتضب: ١/٤٢.

(٣) ينظر: الخصائص: ٢/٣٦١، الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٦٠، الخزانة: ٣: ٢٣٦/ ٦٢٨.

(٤) ينظر المخصص: ١٤/٥٦.

(٥) ينظر اللسان: مادة (قدد)، تاج العروس: ٢/٤٦٢.

وهو ولو، لأن هذه الحروف لا دليل على ما نقص منها فيجب أن يزاد في أخرها ما هو من جنسها ويدغم"[١]، وفيما قيل نظر من وجوه وذلك لأن التشديد يكون في المعتل إذا سمي به، لئلا يبقى على حرف واحد مع التنوين، لكون حرف العلة يحذف تخلصا من التقاء ساكنين. أما (قد) إذا سميت بها تقول هذا قدٌ، ورأيت قدّاً، ومررت بقدٍ، بالتخفيف ونظيره يد ودم[٢]، ومنهم من ذهب إلى أن أصلها (قدن)، جاء في اللسان: " القدن الكفاية والحسب جعل القدن اسماً واحداً من قولهم قدني كذا وكذا. أي حسبي وربما حذفوا النون فقالوا قدي وكذلك قطني"[٣]، وليس كذلك لأن (قدن) لم تستعمل بذلك المعنى، وقد جعلها الخليل في تقليباته مهملة [٤]، والأصل الصحيح (قدد) بدليل قوله تعالى ﴿ كنا طرائق قددا ﴾ [الجن١١]، والقدد جمع (قدة)، والقدة من القدد، كالقطعة من قطع، وهم القدد وصفت الطرائق بالقدد، لدلالتها على معنى التقطع والتفرق[٥]، وتضعيف الدال يدل على أنهما أصلان، لأنه " متى اجتمع معك في الأسماء والأفعال حرف أصل ومعه حرفان مثلان لا غير فهما أصلان، متصلين كانا أو منفصلين، فالمتصلان نحو الحفف والصدد والقصر، وصببت وحللت وشددت"[٦]، والتضعيف لثقله يحذف منه أحد المثلين تخفيفاً، لأن لغة العرب مطردة يجري فيها فُعِلَ من (رددت) مجرى فُعِلَ من (قلت)، وذلك قولهم: قد، ردّ وهدّ.. وإذا كان في موضع يحتملون فيه التضعيف لكراهية التحريك، حذفوا، لأنه لا يلتقي ساكنان"[٧]، ومن باب المحول من المضعف اسما الفعل " قدك وقطك وكان الأصل قدّك وقطّك، أي اقطع هذا الأمر قطعاً، فهو في الأصل مصدر مضاف إلى الفاعل فأقيم مقام الفعل فبني فحذف المدغم فيه تخفيفا، كما أن وضع أسماء الأفعال على التخفيف"[٨]. إن حذف حرف من الكلمة لا يحدث إلا لغرض فإن (قد) بالتخفيف أفادت السرعة في القطع وتحولت إلى اسم فعل، وذلك عدول عن معناها الأصلي وقيل إن " قد الاسمية على وجهين اسم مرادف لحسب والغالب فيها البناء يقال: قَدْ زيدٍ درهم وقدني بالنون حرصا على السكون، وتعرب بقلة يقال: قَدُ زيدٍ درهم بالرفع، كما يقال حسُبه درهم بالرفع وقدي بغير نون، كما يقال حسبي. والوجه الثاني اسم فعل مرادفة ليكفي. يقال: قد زيدا درهم وقدني درهم، كما يقال يكفي زيدا درهم ويكفيني درهم وقوله:

قدني من نصر الخبيبين قدي

يحتمل (قد) الأولى أن تكون مرادفة لحسب على لغة البناء، وأن تكون اسم فعل، وأما الثانية فتحتمل الأول وهو واضح، والثاني على أن النون حذفت ضرورة ويحتمل أنه اسم فعل لم يذكر مفعوله فالياء للإطلاق والكسر للساكنين"[٩]. وهذا القول فيه نظر من وجوه:

جعل (قد) اسم فعل مضارع والمستعمل أمر، وفعل الأمر أحق بالنون من غيره لرفع اللبس بين ياء المتكلم وياء المخاطبة ولئلا يلتبس أمر المذكر بأمر المؤنث استعمل (قد) مع الظاهر والصحيح مع المضمر، لان التخفيف فيها لغرض العدول بمعناها وذلك بخلاف المضعف.

---

(١) الصحاح: ٨٩٩.

(٢) ينظر تاج العروس: ٢/٤٦٣.

(٣) المادة: (قدن).

(٤) العين: ٥/١١٨.

(٥) ينظر العين: ٥/١٧، جامع البيان في تأويل القرآن: ١٢/٢٦٦، الكشاف: ٤/١٦٩، التفسير الكبير: ٣٠/١٤٦.

(٦) الخصائص: ٢/٥٦.

(٧) الكتاب: ٤/٤٢٢-٤٢٣.

(٨) شرح الكافية: ٢/٧١.

(٩) مغني اللبيب: ٢٢٦-٢٢٧. الخزانة:٢/٤٥٠-٤٥١.

وقيل: " قد وقط يكونان اسما للفعل بمعنى حسب. يقال: قدني كذا وقطني كذا. وحكى قدي، وحكى الفراء: قَدْ زيداً وجعل ذلك مقيساً على ما سمع من قولهم قدني وقدك والصحيح أن ذلك لا يستعمل مع الظاهر وإنما جاء عنهم في المضمر"(١).

(قد) اسم فعل لازم، وهو مبني لوقوعه موقع الفعل المبني، ومثله قط، فيقال: قدك وقطك"، وهما اسمان ومسماهما اكتف وانته، فهما لا زمان على حسب ما سميا به من الأفعال، وهما مبنيان لوقوعهما موقع الفعل المبني، وجريهما مجراه في الدلالة وسكن اخرهما على حد التسكين في صه ومه، لأنه الأصل في البناء، ولم يلتقِ في آخرهما ساكنان فتجب الحركة لاجتماعهما، والكاف فيهما ليست اسماً، إنما هي حرف خطاب على حدها في رويدك، و (قد) مخففة واصلها (قدّ) مثقلة فحذفت إحدى الدالين تخفيفا على حد قولهم بخ خفيفة في بخٍ مثقلة، لأنه مأخوذ من قددت الشيء إذا قطعته طولا، وكذلك قطك مخففة من (قطّ) مأخوذة من قَطَطت أي قطعته عرضا كأن الاكتفاء قطع عما سواه"(٢).

دخول نون الوقاية على (قد) اختلف فيها، فقد ذهب الكوفيون إلى الاستدلال بقدني في جواز دخول نون الوقاية على الاسم، كما قال الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

قال الفارسي: " إن كان غرّ ابن السكيت هذا البيت فقد وهم ليست قطن حَسْبا إنما يقال قطني من كذا وكذلك قدني وإنما هو قطي وقدي ودخلت عليهما النون كما دخلت على من وعن في حال الإضافة حين قالوا منّي وعنّي ليسلم الحرف الساكن من الكسر " (٣). وأجاب البصريون بأن ذلك من الشذوذ " وإنما حسن دخول هذه النون على (قد) و (قط) لأنك تقول: " قدك من كذا وقطك من كذا " أي اكتف به فتأمر بهما كما تأمر بالفعل فلذلك حسن دخول هذه النون عليهما على أنهم قالوا قطي وقدي من غير نون، كما قالوا قطني وقدني بالنون قال الشاعر:

قدني من نصر الخبيبين قدي ليس الإمام بالشحيح الملحد(٤)

"يحتمل قوله (قدني) وجهين: أحدهما أن يكون بمعنى (حسب) والياء في موضع جر. والثاني أن يكون اسم فعل، والياء في موضع نصب وقوله آخر البيت (قدي) يحتمل ثلاثة أوجه: أحدهما أن يكون بمعنى (حسبي)، ولم يأتِ بنون الوقاية على احد الوجهين. وثانيها أن يكون اسم فعل، وحذف النون ضرورة. وثالثها أن يكون اسم فعل، والياء للإطلاق وليس ضميراً"(٥)، والنون تقي من اللبس وتفصل بين الاسم والفعل أو بين المصدر والفعل نحو حجري وحجرني وضربي وضربني، فهي تتصل بالفعل وبما تضمن معناه من الحروف كالحروف المشبهة بالفعل وحروف الجر التي تتعلق بها، أما أسماء الأفعال فإنها تنون ولا تتصل بها الضمائر صاحبة الحدث فلا يقال صها ولا صهوا كما يقال اسكتا واسكتوا بل تقال بلفظ الإفراد دوما اكتفاء بالحدث، لأنها ابلغ وآكد من معاني الأفعال التي هي بمعناها لما فيها من الاختصار والسرعة والعموم في شمول مدلولها الجميع لذلك لم تتصرف (قد) و(قط)، لأنهم " كرهوا أن يجروها مجرى الأسماء المتمكنة نحو يد ودم إذا أضفت فقلت يدي ودمي وكان الاسم اقبل للتغيير لقوته في ذاته فخصوا الاسم بالإجحاف وخصوا هذا

---

(١) معجم مفردات الفاظ القرآن: ٤٠٩.

(٢) شرح المفصل: ٣٣/٤.

(٣) المخصص: ٦٢/١٤.

(٤) الإنصاف في مسائل الخلاف: ٧٦/١.

(٥) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٥٤.

الحرف بحفظ ونظام حروفه وحركاته"[١]، لأن " عادة العرب إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه"[٢]، والقدّ والقطّ القطع والشق طولاً وعرضاً[٣]، فإذا أريد منهما معنى الاكتفاء خففتا بحذف أحد المثلين المدغمين، وهو المتطرف المتحرك، فبقي الساكن بدليل عودة المحذوف عند التصغير بعد التسمية بهما قديد وقطيط، وإضافتهما إلى الياء تطلب التقوية بالنون للحفاظ على السكون، لفقدهما التثقيل بالحذف للعدول بمعناها إلى الاكتفاء، للمبالغة " وذلك انك في المبالغة لابد أن تترك موضعا إلى موضع إما لفظاً إلى لفظ، وإما جنساً إلى جنس... وذلك أنه لما خرج عن معهود حاله أخرج أيضاً عن معهود لفظه، ولذلك أيضا إذا أريد بالفعل المبالغة في معناه، اخرج عن معتاد حاله من التصرف فمنعه، وذلك نعم وبئس وفعل التعجب"[٤].

وزيادة نون الوقاية لمعنى التأكيد، ولا تكون الزيادة إلا آخرا وحشوا، وحقها أن تكون في الأفعال، وما تضمن معناها، و " معنى كونه زائداً أن أصل المعنى حاصل بدونه دون التأكيد فبوجوده حصل فائدة التأكيد، والواضع الحكيم لا يضع الشيء إلا لفائدة"[٥].

وذكر النون هنا تأكيدا لا وجوبا، للدلالة على أصل ما غُيّر من غيره، فان (قد) و (قط) مخففتان من القدّ والقطّ، ثم استغني بهما عن الأصل، لأن " العرب قد تستغني بالشيء عن الشيء حتى يصير المستغنى عنه مسقطا من كلامهم البتة"[٦]، وفيهما معنى الفعل بحسب الأصل، فجاءت النون تأكيدا لهذا المعنى والغرض من استعمالها الإيجاز والاختصار، فاكتفى بالتخفيف من فعليهما وفاعلهما، و "كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى وبابها الحروف والأفعال"[٧]، وكان معنى الحرفية اغلب عليهما من الاسمية، لحملهما على أفعال الأمر " أو لا ترى أن البناء الذي سرى في باب صه ومه وحيهلا ورويدا وإيه وأيها وهلم ونحو ذلك من باب نزال ودراك ونظار ومناع إنما أتاها من قبل تضمن هذه الأسماء معنى لام الأمر... فلما كان معنى اللام غائراً في هذا الشق وسائراً في أنحائه ومتصوراً في جميع جهاته دخله البناء من حيث تضمن هذا المعنى"[٨].

وسكون الطرف ليس واجبا لتحركه في الوصل، و " تكون قد مثل قط بمنزلة (حسب)، يقولون: مالك عندي إلا هذا فقد أي فقط... فتقول قدي وقدني.. والقول في قدني كالقول في قطني.. وأما قولهم قدك، بمعنى حسبك فهو اسم، تقول قدي وقدني أيضا بالنون على غير قياس، لأن هذه النون إنما تزاد في الأفعال وقاية لها مثل ضربني وشتمني، قال ابن بري: وهم الجوهري في قوله إن النون في قوله قدني زيدت على غير قياس وجعل نون الوقاية مخصوصة بالفعل لا غير، وليس كذلك وإنما تزاد وقاية لحركة أو سكون في فعل أو حرف كقولك منّي وعنّي فزدت نون الوقاية لتبقى نون (من) و (عن) على سكونها وكذلك في (قد) و (قط) تقول قدني وقطني فتزيد نون الوقاية لتبقى الدال والطاء على سكونهما"[٩].

---

(١) المخصص: ١٤/٦٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣/١٠٧.

(٣) ينظر اللسان: مادة (قدد) و (قطط).

(٤) الخصائص: ٣/٤٦.

(٥) البرهان في علوم القرآن: ٣/٧٤.

(٦) الخصائص: ١/٢٦٦.

(٧) البرهان في علوم القرآن:٣/٧١.

(٨) الخصائص: ٢/٣٠٠.

(٩) اللسان: مادة (قدد).

إن زيادة النون تدل على معنى الفعلية، لأنها لا تلحق الأسماء، وإن(الياء) بعدها ضمير نصب، تفريقا لها عن ضمير الجر، لأن " علامة إضمار المنصوب المتكلم (ني)، وعلامة إضمار المجرور المتكلم الياء، ألا ترى انك تقول إذا أضمرت نفسك وأنت منصوب: ضربني وقتلني، وإنني ولعلني. وتقول إذا أضمرت نفسك مجروراً: غلامي وعندي ومعي"(١).

فالياء في (قدني) و (قطني) في محل نصب بدلالة النون، وان المعنى كفاني، أما في (قدي) و (قطي) فهي في محل جر، لأن المعنى حسبي، لأنهما خففتا وعدل بهما عن أصلهما، ليتحملا معنىً معيناً. و "هما لم يتمكنا في التصريف، فإذا أضفتهما إلى نفسك قويتا بالنون، قلت: قطني وقدني، كما قووا عني ومني ولدني بنون أخرى، وقال أهل الكوفة: معنى قطني كفاني، فالنون – ويقصد الياء – في موضع نصب مثل نون كفاني، لأنك تقول: قط عبد الله درهم، وقال أهل البصرة: الصواب فيه الخفض على معنى حسب زيد وكفى زيد درهم وهذه النون عماد"(٢).

وعدّ دخول النون دليلاً على الفعل في التعجب، نحو ما أحسنني وما أظرفني، لأنها لا تدخل على الاسم، " فلو لم يكن افعل في التعجب فعلاً وإلاّ لما دخلت عليه نون الوقاية كدخولها على سائر الأفعال. اعترضوا على هذا بأن قالوا: نون الوقاية قد دخلت على الاسم في نحو (قدني) و (قطني) أي حسبي. وما اعترضوا فيه ليس بصحيح ؛ لأن (قدني) و (قطني) من الشاذ الذي لا يعرج عليه، فهو في الشذوذ بمنزلة مني وعني" (٣).

إنّ (قد) و (قط) مقتطعان وليسا كغيرهما من الأسماء، وهما اقرب إلى الفعل منه إلى الاسم، بدليل بنائهما، وقد كانا في الأصل معربين للدلالة على أنهما عدل بهما إلى معنى آخر بالحذف زائد على معناهما وهو القطع، فصارا بمعنى الاكتفاء والانتهاء، لذلك فالاسمية في (قد) المخففة ليست بمعناها في المشددة، لأن المخففة فيها معنى الفعلية، وهو مسوّغ لدخول النون، كما هو مسوغ لدخولها على حروف الجر، لنيابتها عن الأفعال بدليل نصب محل المجرور بها يظهر ذلك في البدل والعطف وقد جعلت الياء علامة المجرور والمنصوب في المثنى والجمع الذي على حده، وعلامة إضمار المجرور والمنصوب.

قال سيبويه: " وسألته رحمه الله عن قولهم: عني وقدني وقطني ومني ولدني، فقلت ما بالهم جعلوا علامة إضمار المجرور ها هنا كعلامة إضمار المنصوب ؟ فقال: انه ليس من حرف تلحقه ياء الإضافة إلا كان متحركا مكسورا ولم يريدوا أن يحركوا الطاء التي في قط ولا النون التي في (مَنْ)، فلم يكن لهم بدّ من أن يجيئوا بحرف لياء الإضافة متحرك، إذ لم يريدوا أن يحركوا الطاء ولا النونات؛ لأنها لا تذكر أبداً إلا وقبلها حرف متحرك مكسور.. وإنما حملهم على أن لا يحركوا الطاء والنونات كراهية أن تشبه الأسماء نحو يد وهن.. وقد جاء في الشعر: قطي وقدي. فأما الكلام فلابد فيه من النون، وقد اضطر الشاعر فقال قدي شبهه بحسبي، لأن المعنى واحد"(٤).

---

(١) الكتاب: ٢/٣٦٨-٣٦٩.

(٢) اللسان: مادة (قطط).

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف: ١٣٠-١٣١، المسألة ١٥.

(٤) الكتاب: ٢/٣٧٠-٣٧١.

فإن (قدني) و (قدي) بمعنى، وقد حذفت نون الثاني للضرورة، وذلك بخلاف من قال: " الأصل قدني بغير نون، وقدني بالنون شاذ ألحقت النون فيه لضرورة الوزن"(١).

وليست (قد) مثل (يد)، لأن (يداً) معربة، و (قد) مبنية لتضمنها لام الأمر، و (يد) معتلة اللام، و (قد) مضعفة، لأنه " لا يكون اسم على حرفين إلاّ وقد سقط منه حرف ثالث، يبين لك ذاك التصغير والجمع"(٢)، فإن "جعلت (قد) اسماً شددته فتقول: كتبت قدا حسنة وكذلك كيّ وهوّ ولوّ، لأن هذه الحروف لا دليل على ما نقص منها، فيجب أن يزاد في أواخرها ما هو من جنسها ويدغم"(٣)، وليس كذلك لأن (قد) صحيحة الآخر، وما نقص منها معلوم بالتصغير، والتشديد يعيدها إلى الأصل، والاسم الصحيح إذا سمي به لا يضعف، وإنما ينون، كما نونت (يد)، لأنها معلومة الأصل، " فأما الاسم المتمكن فلا يجيء على حرفين إلا وقد حذف منه حرف وأكثر ذلك في حروف العلة، لأنها متهيأة لقبول الحذف والتغيير"(٤)، لذلك قيل في إضافتها إلى ياء المتكلم " ويجب نون الوقاية في (قد) و (قط) لكونها على حرفين"(٥)، وذلك بخلاف يدي ودمي، أما إعراب (قد) الاسمية، وإن كان قليلاً، فهو إجراء لها مجرى حسبك وكافيك، لأنها بمعناها، كما اجروا حسبك وكافيك مجرى قدك في عدم التصرف، كذلك اجروا (قد) مجرى حسبك وكافيك، فقالوا: " مررت برجل كافيك من رجل وبرجلين كافيك من رجلين وبامرأة كافيك من امرأة إجراء له في عدم التصرف مجرى قدك وقطك وقالوا مررت برجل، هدك من رجل وبرجلين هدك من رجلين وبرجال هدك من رجال وبامرأة هدك ومعنى هدك أي أثقلك وصف محاسنه فأجروه مجرى قدك في عدم التصرف لأفادته فائدته"(٦).

وجاءت حسبك وهدك ومثلهما همك ونحوك وشرعك موجدة، لأنها مصادر، لدلالتها على القليل والكثير وإضافتها لا تفيد تعريفاً، لذلك توصف بها النكرات، لأنها في معنى أسماء الفاعلين وتعني الحال"(٧).

والقد اسم معرب بمعنى النعل. سميت قدّا ؛ لأنها تقد من الجلد. والقِد بالكسر وتر القوس، وبالفتح المد والنزع في القوس(٨)، وإذا أريد منه معنى الكفاية خفف بالحذف، فيكون " بمعنى حسب في الكفاية، كقولك قَدني درهمان، وتقول: قدني بالفتح والكسر"(٩)، لأن المضعف منه يأتي بالفتح للدلالة على إحداث القطع المستأصل والشق طولاً والمكسور منه للدلالة على ما اقتطع من الجلد فالقِد " بالكسر: سير يقدّ من جلد غير مدبوغ.. والقد بالكسر: السوط وهو في الأصل سير يقدّ من جلد غير مدبوغ، أي قدر سوط"(١٠).

فالمفتوح مصدر ويعني عملية القطع والمكسور يعني الجلد المقطوع بقدر، فإذا خففت المفتوح جاء منه اسم الفعل، لما فيه من معنى الحدث، أما المخفف من المكسور فانه يعني الكفاية من الشيء المقتطع، لأنه يعني الشيء المقدود بعينه، وقد يستعمل المخفف المفتوح لخفته استعمال الأسماء فيضاف إلى ياء المتكلم بلا

---

(١) اللسان: مادة (قدد).

(٢) المقتضب: ٤٢/١.

(٣) اللسان: مادة (قدد).

(٤) المخصص: ٤٦/١٤.

(٥) شرح الكافية: ٧٦/٢.

(٦) شرح الكافية: ٢٧٦/١.

(٧) ينظر: شرح المفصل:٥٠/٣-٥١.

(٨) ينظر: تاج العروس: ٢- ٤٦٣.

(٩) حروف المعاني: ١٤.

(١٠) اللسان: مادة (قدد).

نون بمعنى حسبي، وتكون الياء في موضع جر ويستعمل بمعنى اسم الفعل فتلزمه النون، وتكون الياء في موضع نصب، لأن (قد) الاسمية لها " معنيان:

الأول: أن تكون بمعنى (حسب). تقول: قدني، بمعنى حسبي والياء المتصلة بها مجرورة بالإضافة. ويجوز فيها إثبات نون الوقاية وحذفها والياء في الحالين في موضع جر.

الثاني: أن تكون اسم فعل (كفى) ويلزمها نون الوقاية، مع ياء المتكلم كما تلزم مع سائر أسماء الأفعال. والياء المتصلة بها في موضع نصب"[١].

لقد عدل بقد المخففة عن أصل معناها في دلالته على عموم القطع والشق، فاختصت بما انقطع فعلاً، وتحولت إلى معنى الطلب بالكف عن الاستمرار في الحدث، بعد أن كانت تدل على الحدث نفسه، فخرجت بذلك عن الإعراب إلى البناء، لملازمتها معنى الطلب وشابهت (قط) في التخفيف والبناء ومعنى الطلب والإضافة لأشتراكهما في اصل المعنى وهو القطع عامة، ثم التخصيص بالحذف فكانا بمعنى (حسبك)، لأن جزء الكلمة لا يحكم عليه بأعراب " وكذلك قدك وقطك، لأن معناهما حسبك، إلاّ أن حسبك معربة وهاتان مبنيتان على السكون – يعني قد وقط – وتقول: حسبك درهمان فأنت تجريه مجرى يكفيك درهمان " [٢].

واشتركا في المعنى فإنهما في معنى المصدرية والذات المتشخصة، فالقط بالفتح المصدر، وبالكسر الشيء المقطوط قال تعالى ﴿ **قالوا ربنا عجل لنا قطنا**﴾ [ص ١٦]، "القط النصيب، وأصله الصحيفة يكتب للإنسان فيها شيء يصل إليه، قال الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته بأمته يعطي القطوط ويأفق

يأفق يفضل"[٣].

وقيل: " القط: الصك بالجائزة، والقط: الكتاب، وقيل: هو كتاب المحاسبة " [٤]" والاشتراك في الاستبدال، فإن الدال من التاء في الافتعال كما تبدل الطاء، لأن (التاء) مهموسة والطاء والدال شديدتان مجهورتان، إذا كانت فاؤه صادا أو ضادا أو طاء أو ظاء أو زايا نحو اصطبر واضطرب واطرد وازدجر، والأصل اصتبر واضترب واطترد وازتجر، تقريبا للأصوات بعضها من بعض، وتغليبا للإطباق، و " لولا الإطباق لصارت الطاء دالاً " [٥]، ولما كانت (الطاء) مستعلية، و (الدال) منخفضة اختلفا في المراد منهما، فكان " القد طولاً، والقط عرضاً، وذلك إن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض، لقربه وسرعته، والدال المماطلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولاً"[٦].

وذلك لأن الطاء مطبقة غير منفتحة ومستعلية صاعدة بخلاف الدال المنفتحة والمنخفضة، فكان استغراق صوت الطاء أقصر زمناً من الدال، لشدة ضغط ظهر اللسان علي الحنك الأعلى مع استعلائه، فكان صوت (الطاء) مطبقا مستعليا وليس صوت الدال كذلك، فكان أطول منه، فناسب أن يأتي معبرا عن الحدث الأطول، " والإطباق: أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى، مطبقا له. ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٥٣.

(٢) الأصول في النحو: ٣٦/٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه: ٣٢٣/٤. وفي اللسان: بغبطته بدلا من بأمته. مادة (قطط).

(٤) اللسان: مادة (قطط).

(٥) سر صناعة الأعراب: ٧٠/١.

(٦) الخصائص: ١٥٨/٢.

والصاد سيناً والظاء ذالاً ولخرجت الضاد عن الكلام، لأنه ليس من موضعها شيء غيرها، فتزول الضاد إذا عدمت الإطباق إليه.. ومعنى الاستعلاء أن تتصعد في الحنك الأعلى"[١]، والدال ليس لها صعود الطاء و علوها، ومن ذلك " قولهم: قرت الدم، وقرد الشيء وتفرد وفرط يفرط. فالتاء اخفت الثلاثة فاستعملوها في الدم إذا جف، لأنه قصد ومستخف في الحس عن القرد الذي هو النباك في الأرض ونحوها وجعلوا الطاء – وهي أعلى الثلاثة صوتاً – (للقرط) الذي يسمع. وقرد من القِرْد، وذلك لأنه موصوف بالقلة والذلة" [٢].

وهذه الأصوات الثلاثة متقاربة في مخارجها ومختلفة في صفاتها، فإذا جاورت التاء الزاي أو الصاد أو الضاد أو الطاء أو الظاء، قلبت دالاً أو طاءً للتوافق في الصفة وطلبا للانسجام الصوتي، بتغليب الصوت المناسب، ولما كانت أكثر امتدادا للصوت من الطاء، صار "القد خلاف القط، لأن القد طولاً والقط عرضاً"[٣]. واستعملت (قد) المخففة اسماً بمعنى (حسب) واسم فعل بمعنى (كفى)، وحرفا للإيجاب، فتكون قد " جواب لمتوقع نقيض (ما) التي للنفي"[٤]. ولم تستعمل (قط) المخففة حرفاً. قال سيبويه: " قط كحسب، وان لم تقع في جميع مواقعها، ولو لم يكن اسماً لم تقل: قطك درهمان، فيكون مبنياً عليه.. واعلم إنهم إنما قالوا: حسبك درهم، وقطك درهم، فأعربوا حسبك، لأنها أشد تمكناً ألا ترى أنها تدخل عليها حروف الجر، تقول بحسبك، وتقول: مررت برجل حسبك فتصف به وقط لا تمكن هذا التمكن قالوا: حسبك درهم، وقطك درهم، فأعربوا حسبك، لأنها اشد تمكنا ألا ترى إنها تدخل عليها حروف الجر، تقول: بحسبك، وتقول: مررت برجل حسبك، فتصف به. وقط لا تمكن هذا التمكن "[٥]، وإنما بنيت (قط) مثل (قد)، لخروجهما عن معنى الاسمية بالتخفيف، فغلبت الفعلية إذ جعلا لمعنى (كفى)، لأن (قط) " تكون مخففة بمعنى (كفى) كقولك: قط عبد الله درهم، تريد: كفاه"[٦]، والمشددة استعملت ظرفا بخلاف (قد) بالتشديد مصدر (قدد) فكان " قط بتشديد الطاء وضمها في اللغة الفصحى، وهو ظرف لاستغراق ما مضى من الزمان، نحو ما فعلته قط. وقول العامة لا افعله قط لحن"[٧]، فلما أشبهت(قد) المخففة (إن) في التوكيد، أكد بها الجملة الفعلية كما أكدت الجملة الاسمية بـ(إن)، مع اللام المؤكدة أو الواقعة في جواب القسم، لأنهما يتلقى بهما القسم، لأن " التوكيد في الجمل الاسمية يكون بإن، أو بأن واللام أو بان واللام والقسم، وفي الجملة الفعلية يكون بقد، أو بقد والقسم"[٨].

المبحث الثاني

الحرفية في قد

معنى (قد) جواب التوقع لأمر يكون مع التقريب من الحال[٩]، وهي مختصة بالفعل ولا تدخل على غيره ولا تفصل عنه.

---

(١) سر صناعة الأعراب: ١/٧٠-٧١.

(٢) الخصائص: ٢/١٥٨.

(٣) كتاب الأفعال: ٢/٩٦.

(٤) مجمل اللغة: ٣-٤ /٧٢٧.

(٥) الكتاب: ٣/٢٦٨.

(٦) حروف المعاني: ٣٦.

(٧) نزهة الطرف في علم الصرف: ١١٥.

(٨) علوم البلاغة: ٥٢.

(٩) المخصص: ١٤/٥٥.

قال سيبويه في باب الحروف التي لا يليها بعدها إلاّ الفعل " فمن تلك الحروف (قد) لا يفصل بينها وبين الفعل بغيره"(١).

ولم تعمل في الفعل لاقتصار تأثيرها على توكيد الحدث زمنياً، فهي كالسين وسوف تنقل زمن الماضي إلى الحال وتقرب المضارع من الحال لذلك قالوا: إنها للتقليل، وهو تقريب للزمن، فهي مشتركة بين الماضي والمضارع وتجمعها في الحال، ولم تختص باحدهما فلم تعمل، وقولهم " حرف يصحب الأفعال "، لأنه " يوجب الشيء كقولك: قد كان كذا وكذا والخبر أن تقول كان كذا وكذا فادخل (قد) توكيدا لتصديق ذلك"(٢)، ولا يعمل وان كان من الحروف المختصة بالأفعال ولا يحسن ايلاء الاسم اياه، وهو في ذلك كالسين وسوف ومنزلة هذه الحروف من الفعل منزلة الألف واللام من الاسم، لأن السين وسوف يقصران الفعل على زمان دون زمان، وهي بمنزلة الألف واللام التي للتعريف، و "(قد) توجب أن يكون الفعل متوقعا وهو يشبه التعريف أيضاً، كما أن الألف واللام اللتين للتعريف لا يفصل بينهما وبين التعريف أيضا كان هذا مثله"(٣).

"فإن قال قائل ما بال لام المعرفة لم تعمل في الاسم، وهي لا تدخل إلا على الاسم ولا يجوز أن تدخل هذه اللام على الفعل ؟ قيل: هذه اللام قد صارت من نفس الاسم ألا ترى قولك: الرجل، يدلك على غير ما كان يدل عليه رجل وهي بمنزلة المضاف إليه الذي يصير مع المضاف بمنزلة اسم واحد نحو قولك: عبد الملك، ولو أفردت عبداً من الملك لم يدل على ما كان عليه عبد الملك، وكذلك الجواب في السين وسوف، إن سأل سائل، فقال لِمَ لَمْ يعملوها في الأفعال، إذا كانتا لا تدخلان إلاّ عليها فقصتهما قصة الألف واللام في الاسم، وذلك أنها إنما هي بعض أجزاء الفعل"(٤)، وكذلك (قد) لم تعمل، وان لازمت الأفعال، لأنها للتصديق والتوكيد كأحرف الجواب وقيل إنها لا تكون للتوقع مع الماضي ؛ لأن " التوقع هو انتظار الوقوع والماضي قد وقع"(٥).

إنّ زمن الفعل داخل التركيب صرفي نحوي والقائل قد نظر إلى الفعل خارج التركيب فوجده قد وقع والحقيقة انه سيقع حتما، ودليل ذلك مجيء (قد) مع الماضي داخل التركيب فتصيره كالمضارع في دلالته على الحال.

قال سيبويه: " وأما (قد) فجواب لقوله لما يفعل فتقول قد فعل وزعم الخليل أن هذا الكلام لقوم ينتظرون الخبر"(٦). وهذا أول تحديد للزمن بالقرائن لا بالصيغة وقال أيضاً: " يفعل وقد فعل إنما هما لقوم ينتظرون شيئاً، فمن ثم أشبهت (قد) (لما) في أنها لا يفصل بينها وبين الفعل"(٧).

أي (فعل) مع (قد) أشبه (يفعل) في دلالته الزمنية، لأن (قد) تفيد تقريبه من الحال وهذا تنبيه على أن الزمن يتعين بالقرائن وليس بالماضي والمضارع، لأن: " (قد) تقرب الماضي من الحال إذا قلت قد فعل، ومنه قول المؤذن قد قامت الصلاة لابد فيه من معنى التوقع"(١).

---

(١) الكتاب: ٣/ ١١٤.

(٢) أوضح المسالك: ١٨١، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٤، ٢١٢، ٢٣٦.

(٣) شرح المفصل: ٨/ ١٤٨.

(٤) الأصول في النحو: ١/ ٥٦.

(٥) تاج العروس: ٢:٤٦٢.

(٦) الكتاب: ٤/ ٢٢٣.

(٧) نفسه: ٣/ ١١٥.

وتمسك ابن هشام بمصطلح الماضي، ولم يلتفت إلى القرائن لانشغاله بالصيغة لا بالسياق فـ"رأى أنها – أي قد – لا تفيد التوقع أصلاً"(٢).

إنّ اختلاف الزمن باختلاف التراكيب، فقد يستعمل (فعل) في موضع (يفعل)، كما يمكن استعمال (يفعل) مكان (فعل) في إفادة الزمن الماضي، وهو ما يعرف داخل السياق.

ويرى المحدثون: " إن (الفعل الماضي) مصطلح أو تسمية لصيغة من صيغ الفعل الثلاثة، وليس لهذه التسمية من دلالة أكثر من التفريق بين صيغة(فعل) والمزيد منها وبين (يفعل) أو (افعل) والمزيد منهما، فهي مجرد قيم خلافية تقوم على أن (فعل) نمط مخالف لغيرها. وهي خارج السياق تفيد حدثا بدلالتها المعجمية، وتكون قابلة لإفادة زمان عام وأن دلالتها على الزمان تتحدد متى دخلت السياق، وقد لوحظ أن السياق الذي ترد فيه يفيد الإخبار، وهذا الإخبار قد يكون عن حدث تم أو سوف يتم أو هو في طريقه لذلك، وقد يفيد غير الماضي نحو رحمه الله"(٣).

فصيغة (فعل) تفيد في تركيب ما الزمن الماضي، وفي غيره الحال، وفي ثالث الاستقبال، وقد تتجرد عن الزمان، ولذلك " فإن الفعل العربي لا يفصح عن الزمان بصيغته، وإنما يتحصل الزمان من بناء الجملة فقد تشتمل على زيادات تعين الفعل على تقرير الزمان في حدود واضحة"(٤).

إنّ التحديد الزمني وظيفة السوابق واللواحق للفعل وقد أشار القدماء إلى ذلك. قال ابن يعيش: " (قد) حرف معناه التقريب وذلك انك تقول قام زيد فتخبر بقيامه فيما مضى من الزمن إلا أن ذلك الزمان قد يكون بعيدا، وقد يكون قريبا من الزمان الذي أنت فيه فإذا قربته بقد فقد قربته مما أنت فيه، ولذلك قال المؤذن قد قامت الصلاة، أي (قد) حان وقتها في هذا الزمان، ولذلك يحسن وقوع الماضي بموضع الحال إذا كان معه (قد)"(٥)، (قد) مع الماضي أثبتت المتوقع ونقلت الزمن إلى الحال، كما أن (لما) مع المضارع قد نفت المتوقع، ومذهب "الكوفيين والبغداديين في (إن) التي تجاب باللام، يقولون هي بمنزلة (ما) و (إلاّ)، وقد قال الفراء: إنها بمنزلة (قد) وتدخل أبداً على آخر الكلام نحو قولك: إن زيداً لقائم، تريد ما زيد إلاّ قائم، وقد قيل انه يريد قد قام زيد"(٦)، وذلك لاشتراكهما في توكيد المثبت وصلاحهما للجواب عنه وذلك بخلاف (لما) المؤكدة للنفي، لأن (قد) ترفع احتمال الإنشاء، فقد " يشترك التعبير بين الخبر والإنشاء، وإن (قد) تزيل هذا الاشتراك في قسم من التعبيرات فتجعله خبراً لا يحتمل الإنشاء، وذلك نحو قولنا (جزاك الله خيراً) فهذا يحتمل الدعاء، ويحتمل الإخبار بأن الله جزاه خيراً عن فعل خير فعله، كما تقول: (لقد فعلت خيراً فجزاك الله خيرا كما ترى). فإذا أدخلت (قد) على الجملة فقلت (قد جزاك الله خيراً) كانت خبراً لا دعاء، ونحوه قولك (رحمه الله) و (عافاه الله)، فهذا يحتمل الدعاء والخبر فإذا أدخلت عليه (قد) فقلت (قد رحمه الله) و (قد عافاه الله) كنت مخبراً لا داعياً"(٧)، "لأن معنى (قد) التأكيد بوقوع الخبر وإثباته وذلك لا يتناسب مع الدعاء، لأن مضمونه لم يقع.

---

(٨) المفصل: ٣١٦.

(١) مغني اللبيب: ٢٢٨.

(٢) الزمن في النحو العربي: ١١١.

(٣) الفعل زمانه وأبنيته: ٢٤.

(٤) شرح المفصل: ٨/ ١٤٧.

(٥) الأصول في النحو: ١/ ٢٦٠.

(٦) الجملة العربية والمعنى: ٢٦٤.

وكذلك (لما) تكون بمعنى (لم) في نفي الفعل المستقبل كقوله تعالى: ﴿ **بل لما يذوقوا عذاب**﴾ [ص ٨][١]، و " (قد) ترد للدلالة على التوقع مع الماضي والمضارع، وذلك مع المضارع واضح، نحو: قد يخرج زيد، فـ(قد) هنا تدل على أن الخروج متوقع، أي منتظر، وأما مع الماضي فتدل على انه كان متوقعا منتظرا ولذلك يستعمل في الأشياء المترقبة"[٢]، " فأصلها أن تكون مخاطبة لقوم يتوقعون الخبر. فإذا قلت: قد جاء زيد – لم تضع هذا الكلام ابتداءً على غير أمر كان بينك وبينه، أو أمر تعلم أنه لا يتوقعه"[٣].

وفي قوله تعالى ﴿ **قد افلح المؤمنون** ﴾ [المؤمنون ١]، قال الزمخشري: " (قد) نقيضة (لما) في تثبت المتوقّع ولما تنفيه، ولا شك إن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دلّ على ثبات ما توقعوه"[٤]. (قد) دلّت على ثبات الفوز إذ دخلت على الماضي، ولذلك قربته من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صدرت بها بشارتهم، " فـ(قد) تثبت المتوقع كما أن (لما) تنفيه"[٥].

وفي قوله تعالى ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها** ﴾ [المجادلة ١]. قال الزمخشري: " فإن قلت: ما معنى (قد) في قوله (قد سمع) قلت معناه التوقع، لأن رسول الله (ص) والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها"[٦].

فإن تصدر الفعل بـ(قد) يشعر بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمجادلة كانا يتوقعان بقيناً سماع الله تعالى، وسيأتي لهما بالفرج من فضله.

وتأتي (قد) في جواب القسم لتفيد توقع الحدث وتأكيده وتدل على قربه من الحال، ففي قوله تعالى ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾ [الأعراف ٥٩]. قال الزمخشري: " جواب قسم محذوف. فان قلت ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع (قد) وقل عنهم نحو قوله[٧]:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صال

قلت: إنما كان ذلك، لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدا للجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى (قد) عند استماع المخاطب كلمة القسم " [٨]، ولكن هناك فرقا ظاهرا بين مجيء جملة الجواب بقد وبدونها، فلو قال الشاعر لقد ناموا اختلف المعنى، أي ينامون الآن فلا يطمئن إليهم أما مجيء الجواب بدون (قد) فيعني أنهم ناموا حقيقة. ولام الابتداء الواقعة في جواب القسم تدخل على المضارع لمشابهته الاسم، ولا تدخل على الماضي لبعده عنه فإذا قرب الماضي من الحال بدخول (قد) عليه كثر دخول اللام الابتداء عليه، قال تعالى ﴿ **ولقد أتينا موسى الكتاب فاختلف فيه** ﴾ [هود ١١٠]، وقال تعالى ﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ [الإسراء ٥٥]، وقال ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما** ﴾ [النمل ١٥]، وقال ﴿ **ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب** ﴾ [الجاثية ١٦].

---

(٧) حروف المعاني: ١١.

(١) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٥٦.

(٢) المقتضب: ٢/ ٣٣٥.

(٣) الكشاف: ٣/ ٢٥.

(٤) أنوار التنزيل: ٤٥١.

(٥) الكشاف: ٤/ ٧٠.

(٦) الكشاف: ٢/ ٨٤.

(٧) ديوانه: ١٤١.

و " لا تدخل على الماضي وإن كان أول جزأي الجملة لبعده عن مشابهة الاسم فإذا دخلته (قد) كثر دخول لام الابتداء عليه، نحو (لقد سمع. ولقد آتينا)، وذلك لأنها تقرب الماضي من الحال فتصير الماضي كالمضارع مع تناسب معنى اللام ومعنى (قد)، لأن في (قد) أيضا معنى التحقيق والتوكيد، وإنما تدخل على نعم وبئس، وان كانا في الأصل ماضيين بلا (قد)، لما ذكرنا في بابهما من صيرورتهما بمعنى الاسم فقولك لنعم الرجل زيد كقولك لحسن زيد "(١).

إنّ الاسم ثابت الدلالة على مدلوله ومستقل في الفهم وتأتي اللام فتؤكد نسبة الخبر إليه، أما المضارع فهو يشابه الاسم في وضوح دلالته مع حروف المضارعة الدالة على الفاعل وتأتي اللام لتؤكد قيام الفاعل بالحدث، أما الماضي مع (قد) فهو قريب من المضارع في دلالته على الحال. وتدل (قد) على ثبات الحدث بالنسبة لمحدثه فكان مجيء اللام معه مناسباً، كما ناسب مجيئها مع نعم وبئس، لأنهما نقلا من الخبر، لمشابهتهما بالإنشاء للحروف، وكل لفظ منهما صار لمعنى من المعاني، والأصل في إفادة المعاني إنما هي الحروف فلما أفادا فائدة الحروف خرجا عن بابهما فبعدا عن الفعلية وكانا من المسائل التي اختلف فيها النحويون(٢).

إنّ (قد) مع الماضي بمنزلة نعم وبئس، لتحقق الحدث والمبالغة في توكيده وفي التخصيص بعد الإبهام والتقريب، كما في المضارع، لاشتراكهما بدخول لام الابتداء عليهما، وفي دلالتهما على الحال، و " هذه اللام تدخل للابتداء في المبتدأ، نحو ﴿ **لأنتم أشد** ﴾ [الحشر ١٣]، وما حلّ محله، وهو المضارع إذا صدر به، نحو: ليقوم زيد. وكذلك الفعل الذي لا يتصرف، نحو ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ [المائدة ٦٢]. وإنما ذلك لمشابهة الاسم، أما المضارع ففي الإبهام والتخصيص، وأما الماضي المذكور فلعدم تصرفه، كعدم تصرف الاسم.. وقد نصوا على دخولها على الماضي المقرون بقد بعد (إنّ)"(٣).

قال الرضي: " وإنما تدخل – أي لام الابتداء – على الخبر إذا لم يكن ماضياً مجرداً عن (قد)، فلا يجوز إن زيداً لقام، كما يجوز إن زيداً ليقوم. بل تقول إن زيداً لقد قام. ويجوز في نعم وبئس نحو إن زيداً لنعم الرجل"(٤).

فكانت لام الابتداء دليلاً على أن (قد) تصرف الفعل الماضي إلى الحال، ودليل آخر على قرب الماضي المسبوق بـ(قد) من المضارع مجيئه حالاً لدلالته على الحال كالمضارع جاء في اللسان: " وقال النحويون: الفعل الماضي لا يكون حالاً إلا بقد مظهراً أو مضمراً"(٥).

إنّ الماضي بلا (قد) لا يكون حالاً، " لأنه لا يجوز أن يكون اسم الفاعل فيها إلاّ لما أنت فيه تطاول الوقت أم قصر، ولا يجوز أن يكون لما مضى وانقطع ولا لما لم يأتِ من الأفعال، إذ الحال إنما هي هيأة الفاعل أو المفعول وصفته في وقت ذلك الفعل"(٦). أما مع (قد) فيصلح أن يكون حالاً، لأن (قد) تقربه من وقت عامله، لأنها تفيد التوقع وهو شبيه بالتعريف وصاحب الحال معرفة، والحال وصف الهيأة. فناسب

---

(١) شرح الكافية: ٢/ ٣٣٨.

(٢) ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/ ٦١ –٧٤.

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني: ١٢٥.

(٤) شرح الكافية: ٢/ ٣٥٦.

(٥) مادة: (قدد).

(٦) شرح المفصل: ٢/ ٥٥.

الماضي مع (قد) ظاهرة أو مقدرة، مجيئه حالا لوضوح دلالته وتأكيدها بـ(قد) فكان كالاسم في استقلال مفهومه وثباته. ولما كان المضارع له بعض الاستقلالية في الدلالة جعل شبيهاً بالاسم. وقد اعترض المحدثون على ربط الحال بالزمن، وانصب اعتراضهم على " خطأ وقع فيه البصريون والكوفيون وهو اعتبارهم لمصطلح (الحال) أنه مرتبط بالوقت الحاضر، والصحيح إن التسمية مرتبطة بالحالة أو الهيأة ولا دخل لها بالزمان، فهو تعبير يوضح جهة في فهم الحدث لا في زمانه لهذا قد يعبّر بالحال عن حالة في الزمان الماضي.. ولا يشترط استعمال (قد) إلاّ مراعاة لاستعمالات اللغة العربية لا مراعاة للحال أو القرب منه"(١).

إنّ ارتباط الحال بزمن الفعل أو ما أشبهه الذي عمل فيها وليس المقصود الوقت الحاضر، وإنما وقت حصول الفعل، و (قد) تؤكد هذا الحصول بإفادتها لمعنى ثبوت نسبة الفعل إلى فاعله، فهي مبينة لقربها من التعريف كـ(أل)، قال الرضي: " ولمثله التزموا لفظة (قد) أما ظاهرة أو مقدرة في الماضي إذا كان حالا مع أن حاليته بالنظر إلى عامله ولفظة (قد) تقرب الماضي من حال التكلم فقط ؛ وذلك لأنه كان يستبشع في الظاهر لفظ الماضي والحالية، فقالوا جاء زيد العام الأول وقد ركب ؛ فالمجيء بلفظ (قد) ههنا لظاهر الحالية، كما أن التجريد عن حرف الاستقبال في المضارع لذلك"(٢).

إنّ الحدث، وإن كان ماضياً، تجعله (قد) مرتبطاً بصاحبه وقت حصوله فصلح الفعل معها لبيان الهيأة هذا إذا كانت (قد) مظهرة، أما إذا كانت مقدرة، كما في قوله تعالى ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم** ﴾ [البقرة ٢٨]، فقد قال الفراء: " المعنى – والله أعلم – وقد كنتم، ولولا إضمار (قد) لم يجز مثله في الكلام، ألا ترى أنه قال في سورة يوسف ﴿ **وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت** ﴾ [يوسف ٢٧]، المعنى –والله أعلم– فقد كذبت، وقولك للرجل: أصبحت كثر مالك، لا يجوز إلاّ وأنت تريد قد ذكر بإظهارها الوجه مالك، لأنهما جميعا قد كانا. فالثاني حال للأول، والحال لا تكون إلا بإضمار (قد) أو باظهارها، ومثله في كتاب الله ﴿ **أو جاءوكم حصرت صدورهم** ﴾ [النساء ٩٠]، يريد –والله أعلم– " جاءوكم قد حصرت صدورهم"، وقد قرأ بعض القراء – وهو الحسن البصري– حصرة صدورهم " كأنه لم يعرف الوجه في أصبح عبد الله قام أو اقبل اخذ شاة، كأنه يريد فقد اخذ شاة وإذا كان الأول لم يمض لم يجز الثاني بقد ولا بغير (قد) مثل قولك كاد قام ولا أراد قام، لأن الإرادة شيء يكون ولا يكون الفعل، ولذلك كان محالا قولك عسى قام، لأن عسى، وان كان لفظها على فَعَل، فإنها لمستقبل، فلا يجوز عسى قد قام، ولا عسى قام ولا كاد قد قام، لأن ما بعدهما لا يكون ماضياً، فإن جئت بيكون مع عسى وكاد صلح ذلك فقلت عسى أن يكون قد ذهب، كما قال الله ﴿ **قل عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعض الذي تستعجلون** ﴾ [النمل ٧٢]"(٣).

فالفعل الماضي المثبت المسبوق بقد يصلح أن يكون حالاً، وإن لم تظهر (قد) قدرت لتوافق زمن الحال وسبيل ذلك اعتماد المعنى وتناسب أجزاء العبارة بعضها مع بعض، فإن أفعال الرجاء والمقاربة تتعارض معانيها مع الزمن الماضي، لأنها تعني الاستقبال لذلك الزموا المضارع في أخبارها، وهذا يفسر جمودها أو نقص تصريفها لتعارض ألفاظها معانيها، كما في نعم وبئس. وقال الزمخشري: " (وكنتم أمواتاً) الواو للحال. فإن قلت فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماضٍ ولا يقال جئت وقام الأمير ولكن وقد قام إلاّ أن يضمر (قد) ؟ قلت لم تدخل الواو على كنتم أمواتاً وحده ولكن على جملة قوله– وكنتم أمواتاً – إلى– ترجعون

---

(١) الزمن في النحو العربي: ١٣٢.

(٢) شرح الكافية: ١/ ٢١٢.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٢٤-٢٥.

– كأنه قيل: كيف تكفرون بالله وقصتكم هذه وحالكم إنكم كنتم أمواتا نطفا في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم بعد الموت ثم يحاسبكم، فإن قلت بعض القصة ماضٍ وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه فما الحاضر الذي وقع حالاً ؟ قلت: هو العلم بالقصة كأنه قيل كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها، فإن قلت: فقد آل المعنى إلى قولك على أي حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة فما وجه صحته ؟ قلت: قد ذكرنا إن معنى الاستفهام في كيف الإنكار، وان إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية فكأنه قيل ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه..."[١].

فالسياق يفرض تقدير (قد)، لأن التعجب يأتي من التحقق من علمهم بحالهم، ومع ذلك يصرون على الكفر. وفي قوله تعالى ﴿ **أو جاءوكم حصرت صدورهم** ﴾ [النساء ٩٠]. قال الفراء: " والعرب تقول أتاني ذهب عقله يريدون قد ذهب عقله وسمع الكسائي بعضهم يقول فأصبحت نظرت إلى ذات التنانير فإذا رأيت (فَعَل) بعد كان ففيها (قد) مضمرة، إلاّ أن يكون مع كان جحد فلا تضمر فيها (قد مع جحد)، لأنها توكيد والجحد لا يؤكد ألا ترى انك تقول ما ذهبت ولا يجوز ما قد ذهبت"[٢].

إنّ النفي يتعارض مع (قد)، لأن (قد) تثبت وقوع الفعل والنفي يزيله، لذا فان (قد) تفيد توكيد حصول الفعل وثبات نسبته إلى فاعله وفيها زيادة معنى كالحال بدليل مجيئها حرف جواب، لأن" معنى (قد) جواب التوقع لأمر يكون مع التقريب من الحال " [٣]، لأن دلالتها على التوقع تكون مع الماضي والمضارع أما التقريب فلا " ترد للدلالة عليه إلا مع الماضي ولذلك تلزم غالباً مع الماضي، إذا وقع حالاً، نحو قوله تعالى ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم** ﴾ [الأنعام ١١٩]، وإن ورد دون (قد) فقيل: هي معه مقدرة. وهو مذهب المبرد والفراء وقوم من النحويين. وقيل لا حاجة إلى تقديرها، وهو الأظهر، وكلام الزمخشري يدل على أن التقريب لا ينفك عن معنى التوقع.. فتدخل على فعل ماضٍ متوقع، لا يشبه الحرف لتقريبه من الحال، وقال ابن الخباز: إذا دخل (قد) على الماضي أثر فيه معنيين: تقريبه من زمن الحال، وجعله خبراً منتظراً. فإذا قلت: قد ركب الأمير فهو كلام لقوم ينتظرون حديثك هذا تفسير الخليل"[٤].

وقال الرضي: " وأجاز الاندلسي على ضعف دخول (قد) في الماضي المنفي بما نحو: ما قد ضرب أبوه. وليس بوجه لعدم السماع والقياس أيضا لكون (قد) لتحقيق وقوع الفعل وما تنفيه"[٥].

إنّ (قد) مع الماضي تفيد معنى التجدد وهو ما يحصل مستقبلا فكيف تدخل على ماضٍ منفي، قال تعالى ﴿**ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾[طه ٨١]، وهو يفيد الاستقبال.

قال الرضي: " ويدخل – أي الشرط – على الماضي الباقي على معناه وذلك إذا كان مُصدّراً بقد ظاهرة أو مقدرة، لأنه إذن متمحض للماضي، وذلك لأن (قد) لتحقيق مضمون ما دخلت عليه ماضياً كان أو

---

(٢) الكشاف: ١/ ٢٦٩.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٢٨٢.

(١) المخصص: ١٤/ ٥٥، وينظر المصدر نفسه: ١٤/ ٤٦.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٥٦– ٢٥٧.

(٣) شرح الكافية: ١/ ٢١٣.

مضارعاً وما تأكد ورسخ لم ينقلب ولم ينقلع على أنه قد جاء قوله تعالى ﴿ **ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾، وهو بمعنى الاستقبال"[٤].

وقال الراغب: " و (قد) حرف يختص بالفعل والنحويون يقولون هو للتوقع وحقيقته انه إذا دخل على فعل ماض فإنما يدخل على كل فعل متجدد نحو قوله ﴿ **قد من الله علينا**﴾[٢]، ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين**﴾[٣]، ﴿ **قد سمع الله** ﴾[٤]، ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين**﴾[٥]، ﴿ **لقد تاب الله على النبي**﴾[٦]، وغير ذلك ولما قلت لا يصح أن يستعمل في أوصاف الله تعالى الذاتية، فيقال قد كان الله عليماً حكيماً، وأما قوله ﴿ **قد علم أن سيكون منك مرضى**﴾[٧]، فإن ذلك متناول للمرض في المعنى كما أن النفي في قولك: ما علم الله زيداً يخرج. هو للخروج وتقدير ذلك قد يمرضون فيما علم الله وما يخرج زيد فيما علم الله، وإذا دخل (قد) على المستقبل من الفعل فذلك الفعل يكون في حالة دون حالة نحو ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا**﴾[٨]، أي قد يتسللون أحياناً فيما علم الله"[٩].

فلابد للماضي المثبت من (قد) ظاهرة أو مقدرة إذا أريد به الحال أو التجدد والاستقبال في الشرط ولا حجة للاخفش والكوفيين غير الفراء باستدلالهم بقوله تعالى ﴿ **أو جاءوكم حصرت صدورهم**﴾ [النساء ٩٠]، وبقول الشاعر:

واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

إذ لم يوجبوا (قد) في الماضي المثبت ظاهرة أو مقدرة [١٠]، وقد اختلف في ذلك، فقال البصريون لا يجوز وقوع الماضي حالاً بدون (قد) وذلك لوجهين أحدهما: أن الفعل الماضي لا يدل على الحال فينبغي أن لا يقوم مقامه. والوجه الثاني: انه إنما يصلح أن يوضع موضع الحال ما يصلح أن يقال فيه " الآن" أو الساعة. نحو مررت بزيد يضرب ونظرت إلى عمرو يكتب؛ لأنه يحسن أن يقترن به الآن أو الساعة وهذا لا يصلح في الماضي فينبغي أن لا يكون حالاً، ولهذا لم يجز أن يقال مازال زيد قام وليس زيد قام، لأن مازال وليس يطلبان الحال وقام فعل ماض فلو جاز أن يقع حالا لوجب أن يكون هذا جائزا فلما لم يجز دلّ على أن الفعل الماضي لا يجوز أن يقع حالاً، وكذلك لو قلت زيد خلفك قام لم يجز أن يجعل " قام " في موضع الحال، وإذا كان مع الماضي (قد) حيث يجوز أن يكون حالاً نحو مررت بزيد قد قام، وذلك لأن (قد) تقرب الماضي من الحال فجاز أن يقع معها حالاً ولهذا يجوز أن يقترن به الآن آو الساعة فيقال: قد قام الآن أو الساعة [١١].

---

(٤) نفسه: ٢/ ٢٦٤.

(٥) يوسف، ٩٠.

(٦) آل عمران، ١٣.

(٧) المجادلة، ١.

(١) الفتح، ١٨.

(٢) التوبة، ١١٧.

(٣) المزمل، ٢٠.

(٤) النور، ٦٣.

(٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن: ٤٠٨-٤٠٩.

(٦) ينظر: شرح الكافية: ٢١٣/١، خزانة الأدب: ٥٥٥/١، منهج الاخفش الأوسط: ٤٠٣.

(٧) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/ ١٤٥، خزانة الأدب: ١/ ٥٥٢.

وهذا التخريج فيه تكلف، لأنه يربط الحال بالزمن الحاضر، ولو قيل إن (قد) تقرب الفعل في الثبوت من الاسم لكان أولى بدليل وجوب اقتران الماضي بـ (قد) بعد إذا الفجائية للتفريق بينها وبين إذا الشرطية التي لا دخول فيها على (قد)[١]، وتأتي (قد) مع المضارع لتفيد المعاني الآتية: تكون بمعنى ربما. قال سيبويه: "وتكون (قد) بمنزلة (ربما). قال الشاعر الهذلي:

قد اترك القرن مصفراً أنامله كان أثوابه مجت بفرصاد

كأنه قال ربما"[٢].

وقيل: تعني التقليل، أي تقليل وقوع الفعل، نحو قد يصدق الكذوب وقد يجود البخيل وتقليل متعلقه، نحو قوله تعالى ﴿ **قد يعلم ما أنتم عليه** ﴾ [النور ٦٤]، أي ما هم عليه هو أقل معلوماته[٣].

وهذا القول ليس على إطلاقه صحيحاً ؛ لأنه في المثالين السابقين لم يستفد التقليل من (قد) بل من قولك البخيل يجود والكذوب يصدق، وإن لم يحمل على أن صدور ذلك منهما قليل كان فاسداً إذ آخر الكلام يناقض أوله [٤]، أما في الآية فهي للتحقيق قال البيضاوي: " وإنما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد"[٥]. يؤيد ذلك قوله تعالى في ختام الآية ﴿ **والله بكل شيء عليم**﴾[النور ٦٤].

وفي قوله تعالى ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ [البقرة ١٤٤]، قال الزمخشري: " ربما نرى ومعناه كثرة الرؤية كقوله قد اترك القرن مصفراً أنامله، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأدعى للعرب إلى الإيمان، لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود فكان يراعي نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل " [٦].

فقد جاءت كثرة الرؤية لكثرة تردد وجه الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، كما أنه كان يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة[٧]، وكذلك قال الشاعر:

قد اشهد الغارة الشعواء تحملني جرداء معروقة اللحيين سرحوب

" لأن الإنسان لا يفخر بما يقع منه على سبيل الندرة والقلة وإنما يفتخر بما يقع منه على سبيل الكثرة فيكون (قد) بمنزلة ربما في التكثير" [٨]، وقيل: "هو معنى غريب"[٩].

وفي قوله تعالى ﴿ **قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون** ﴾ [الأنعام ٣٣]، قال الزمخشري: " (قد) في (قد نعلم) بمعنى (ربما) الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله:

أخا ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله"[١٠]

---

(١) ينظر: مغني اللبيب: ٢٣٢ – ٢٣٣، منهج الأخفش الأوسط: ٤٣٢.

(٢) الكتاب: ٤/ ٢٢٤.

(٣) المغني: ٢٣٠- ٢٣١.

(٤) تاج العروس: ٢/ ٤٦٢.

(٥) أنوار التنزيل: ٤٧٥.

(٦) الكشاف: ١/ ٣١٩.

(١) ينظر: أنوار التنزيل: ٣٠.

(٢) الخزانة: ٤/ ٥٠٣.

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٥٨.

(٤) الكشاف: ٢/ ١٤.

فقد أفادت التكثير.

وتأتي (قد) مفيدة التحقيق والتوكيد، ففي قوله تعالى ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم**﴾ [الصف ٥]، قال الزمخشري: " (وقد تعلمون) في موضع الحال أي تؤذونني عالمين علماً يقيناً "(١). فالجملة حال مقررة لأن العلم بنبوته يوجب تعظيمه ويمنع إيذاءه "و (قد) لتحقيق العلم"(٢).

فالمضارع مع (قد) يقرب من الماضي لحدوثه، وكلاهما يفيد التحقيق، فقد تعلمون، بمعنى قد علمتم حقيقة، وتأكد عندكم نبؤتي، وقيل: "وإنما خرجت إلى معنى (ربما)، لأنها تقريب من الحال، والتقريب تقليل ما بين الشيئين"(٣)، إنّ (قد) قرينة زمنية تسبق الفعل للدلالة على حدوثه ووقوعه، والمضارع يصلح للأزمنة المختلفة بحسب السوابق واللواحق ومجرى السياق والمقام، والتقريب من الحال يعني الشروع به ولم يحصل تحققه بعد، أو الشك في إتمام وقوعه إذا كانت بمنزلة (ربما)، لأن (ربّ) تكون " للشيء يقع قليلاً" (٤)، لاختصاصها بالنكرة وقيل " تكون بمنزلة (ربما) إذا دخلت على المضارع كقولهم الكذوب قد يصدق"(٥).

وذلك في موضع: " قد تستعمل (قد) للتقليل مع المضارع فهي لتقليل المضارع وتقريب الماضي فهي تجري مع المضارع مجرى (ربما) تقول: قد يصدق الكذوب وقد يعثر الجواد تريد أن ذلك قد يكون منه على قلة وندرة كما تقول ربما صدق الكذوب، وذلك لما بين التقليل والتقريب من المناسبة وذلك أن كل تقريب تقليل، لأن فيه تقليل المسافة"(٦).

إنّ التقريب يعني تغيّر دلالة الفعل الزمنية وتحوله من المضي أو الاستقبال إلى الحال مما يعني تأكيد الحدث وتحققه وليس تقليله، فكانت (قد) ومثلها (ربما) من القرائن التي تعتمد لتحديد زمن الفعل في السياق، فتكون دلالة المضارع مع (قد) على الحال لتحققه وكأن الحدث مشاهد الآن، فالتقريب يشترك فيه الماضي والمضارع، وقيل: " وأما التقريب فإنها – أي قد – ترد للدلالة عليه مع الماضي فقط، فتدخل لتقريبه من الحال، ولذلك تلزم (قد) مع الماضي إذا وقع حالاً. وقال ابن عصفور إن جواب القسم بالماضي المتصرف المثبت إن كان قريباً من زمن الحال دخلت عليه (قد) واللام نحو والله لقد قام زيد وان كان بعيداً لم تدخل نحو والله لقام زيد"(٧).

فالتقريب والتقليل متقاربان في الدلالة الزمنية، والتحقيق والتكثير متقاربان في توكيد الحدث والمبالغة فيه، وقد تعني (قد) مع المضارع الشك في وقوع الحدث، وذلك بحسب المراد من إدخالها، لأنها " حرف يوجب به الشيء كقولك قد كان كذا وكذا والخبر أن تقول كان كذا وكذا فادخل (قد) توكيداً لتصديق ذلك، وتكون (قد) في موضع تشبه (ربما) وعندها تميل (قد) إلى الشك وذلك إذا كانت مع الباء والتاء والنون

---

(٥) نفسه: ٤/ ٩٨.

(٦) أنوار التنزيل: ٧٣٢.

(٧) المخصص: ١٤/ ٥٦.

(١) حروف المعاني: ١٤.

(٢) المفصل: ٣١٧.

(٣) شرح المفصل: ٨/ ١٤٧.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٣٠٦.

والألف في الفعل كقولك: قد يكون الذي تقول"[١]، لذلك اختلف النحويون في تفسير قول سيبويه: " وتكون (قد) بمنزلة (ربما)"[٢]. فذهب ابن يعيش إلى أنها بمعنى تقليل الشيء[٣]. وقال الرضي: " بل هي مفيدة للتكثير في الأغلب كإفادة كم"[٤].

وقال الزركشي: " وأما التكثير فهو معنى غريب وله من التوجيه نصيب، وقد ذكره جماعة من المتأخرين، وجعل منه الزمخشري ﴿ **قد نرى تقلب وجهك** ﴾ وجعلها غيره للتحقيق، وقال ابن مالك: إن المضارع هنا بمعنى الماضي أي قد رأينا "[٥]. وفي التاج: " واستشهد جماعة من النحويين على رأي التكثير بقول الشاعر:

قد أشهد الغارة الشعواء تحملني جرداء معروفة اللحيين سرحوب[٦]

وقد نشأ هذا الاختلاف من تعارض (ربّ) التي تفيد التقليل مع السياق الذي يقتضي التكثير، ومقام المبالغة والفخر يتعارض مع التقليل. فقد فسروا (قد) بمعاني (ربّ)، وذلك لأن معاني الحروف في غيرها، والراجح " أنها حرف تقليل والدليل على ذلك أنها قد جاءت في مواضع لا تحتمل إلاّ التقليل، وفي مواضع ظاهرها التكثير وهي محتملة لإرادة التقليل بضرب من التأويل، فتعين أن تكون حرف تقليل، لأن ذلك هو المطرد فيها "[٧]. والدليل لزوم مدخولها الصفة، لأنه " أبلغ في باب التقليل لأن رجلا قائما اقل من رجل وحده فخصصت بذلك"[٨].

وسيبويه لم يصرح بتقليل أو تكثير مما يعني أن (قد) تكون بمنزلة (ربما) وقد لا تكون، ولحروف المعاني مواضع تتقارب فيها، فيشبه بعضها بعضا، لأنها تدل على معنى في غيرها، ومقاصد الكلام مبنية على حروفه مع القرائن ومجرى السياق، والظروف المحيطة بالمنتج، و(قد) تعددت معانيها لذلك، فتكون " في موضع تشبه (ربما) وعندها تميل (قد) إلى الشك، إذا كانت مع العوامل، كقولك: قد يكون ذلك"[٩]، فإن (قد) بعد أن سلبت الاسمية بالتخفيف وخلصت للحرفية، فأصبحت جزءً من الفعل. وكانت قرينة له دالة على فعليته، كما تجردت الكاف في ذلك والتاء في (أنت) والألف في قاما أخواك والواو في قاموا إخوتك والنون في قمن الهندات من معنى الاسمية وخلصت لمعنى الحرفية " فكما جاز لجميع هذه الأشياء أن تكون في بعض المواضع دالة على معنى الاسمية والحرفية، ثم تخلع عنها دلالة الاسمية في بعض المواضع "[١٠]. فكذلك لا ينكر أن تكون (قد) مجردة من معنى الاسمية وخالصة الدلالة على الحرفية، بدليل عدم إعمالها لتعدد معانيها كغيرها من الحروف، فأشبهتها في تعاقب المعاني عليها ولعل الشبه جاء من ناحية إفادة التوكيد بسبب زيادة (ما)، إذ أكدت معنى التقليل في (ربّ)، كما زيدت (ما) في (لما)، و "ما في

---

(٥) اللسان: مادة (قدد).

(٦) الكتاب: ٤/ ٢٢٤.

(١) ينظر: شرح المفصل: ٨/ ٢٦.

(٢) شرح الكافية: ٢/ ٣٣٠.

(٣) البرهان: ٤/ ٣٠٨.

(٤) تاج العروس: ٢ / ٤٦٢.

(٥) الجنى الداني في حروف المعاني: ٤٤٠.

(٦) الأصول في النحو: ١/ ٤١٧.

(٧) العين: ٥/ ١٦.

(١) سر صناعة الأعراب: ١/ ٣١٦.

(لما) مغيرة لها عن حال (لم)، كما غيرت (لو) إذا قلت: لوما ألا ترى انك تقول: لما ولا تتبعها شيئا ولا تقول ذلك في (لم)"[١]. لأن الزيادة لغرض تثبيت المعنى وتقويته " وأما (لما) فهي لم زيدت عليها (ما) فلم يتغير عملها الذي هو الجزم.. ونقع جواباً ونفياً لقولهم قد فعل وذلك انك تقول: قام فيصلح ذلك لجميع ما تقدمك من الأزمنة ونفيه لم يقم.. فإذا قلت قد قام فيكون ذلك إثباتاً لقيامه في أقرب الأزمنة الماضية إلى زمن الوجود.. ونفي ذلك لما يقم زدت على النافي وهو (لم) (ما). كما زدت في الواجب حرفاً وهو (قد) لأنهما للحال..."[٢]، لأن (لما) لنفي (قد فعل) و (قد) تفيد القرب، فكان منفي (لمّا) قريباً من الحال وليس منفي (لم) كذلك، يدلّ على ذلك أن (لمّا) لا تقترن بأداة شرط بخلاف (لم)، لأن (لمّا) إذا نفت الفعل صرفته إلى المضي ولا يحتمل أن يكون لغيره، مثل (قد) في الإثبات، فإن (قد) إذا دخلت على الفعل الماضي تعين أنه للمضي ولا يصح صرفه إلى الاستقبال، بخلاف (لم) فانه يصح صرف ما بعدها إلى الاستقبال كما في مثبتها، لأن (فَعَل) للمضي، وقد يحتمل الدلالة على الاستقبال بقرينة.

وقال الرضي: " أعلم أن (لما) قالوا كان في الأصل (لم) زيدت عليه (ما).. فاختصت بسبب هذه الزيادة بأشياء احدها أن فيها معنى التوقع كقد في إيجاب الماضي فهو يستعمل في الأغلب في معنى الأمر المتوقع، كما يخبر بقد في الأغلب عن حصول الأمر المتوقع تقول لمن يتوقع ركوب الأمير قد ركب الأمير أو لما يركب، وقد يستعمل في غير المتوقع أيضا، نحو: ندم ولما ينفع الندم " فإن التركيب والزيادة في الحروف للعدول بمعناها"[٣]، فهذا يدلك أن الشيئيين إذا خلطا حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمتزجا"[٤]، "وكذلك (هل) إنما تكون بمنزلة (قد) ولكنهم تركوا الألف إذ كانت (هل) لا تقع إلاّ في الاستفهام"[٥]، فصلحت للتقرير والاستفهام من ناحيتي الأصل والاستعمال، فكأنه " يريد أن أصل (هل) أن تكون بمعنى (قد) والاستفهام فيها بتقدير ألف الاستفهام، كما كان ذلك في من ومتى وما.. ولما كثر استعمالها في الاستفهام حذفت الألف للعلم بمكانها"[٦].

إنّ التقرير والتقريب أقوى في (هل) من الاستفهام لذلك قالوا: إنها بمعنى (قد)[٧]، حتى أنهم ذهبوا إلى أن: " هل دخيلة في معنى الاستفهام، لأن أصلها (قد)"[٨]، واستدلوا بقوله تعالى ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا** ﴾ [الإنسان ١].

قال الزمخشري: " هل بمعنى (قد) في الاستفهام خاصة والأصل أ هل بدليل قوله:

أ هل رأوا بسفح القاع ذي الأكم

فالمعنى: أ قد أتى على التقرير والتقريب جميعا أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب" [١].

---

(٢) الكتاب: ٤/ ٢٢٣.

(٣) شرح المفصل: ٨ / ١١٠.

(٤) شرح الكافية: ٢ / ٢٥١.

(١) سر صناعة الأعراب: ١ / ٣٠٥.

(٢) الكتاب: ٣ / ١٨٩.

(٣) شرح المفصل: ٨ / ١٥٢.

(٤) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٤٤.

(٥) شرح الكافية: ٢ / ٣٧٣.

فهل تكون بمعنى (قد) مع الاستفهام، و " نقول: أم هل، فإنما هي بمنزلة (قد)، ولكنهم تركوا الألف استغناء، إذ كان هذا الكلام لا يقع إلاّ في الاستفهام"[٢]، إنّ المفهوم من الاستفهام المقدّر أو الملفوظ التقريب، فجعلوه لـ(هل) بمعنى (قد)، لأن " (هل) قد تكون جحداً وتكون خبراً... لأنك قد تقول: فهل وعظتك ؟ فهل أعطيتك ولو أعطيتك ؟ تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، والجحد أن تقول: وهل يقدر واحد على مثل هذا "[٣]، فجاءت (هل) بمعنى (قد) دون استفهام لأنها " تخرج عن حد الاستفهام، تدخل عليها حروف الاستفهام، نحو قولك: أم هل فعلت ؟ وإن احتاج الشاعر إلى أن يلزمها الألف فعل، كما قال:

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القُفّ ذي الأكم[٤]

" ألا ترى إلى دخول همزة الاستفهام على (هل)، ولو كانت على ما فيها من الاستفهام لم تلاقِ همزته لاستحالة اجتماع حرفين لمعنى واحد. وهذا يدل على خروجها عن الاستفهام إلى معنى الخبر"[٥]، وقال سيبويه " وتقول: أم هل، فإنما هي بمنزلة قد"[٦]. إنّ معاني الحروف تتقارب ولما كان الموضع يفيد التقرير، و (قد) تفيده مع التحقيق والتوقع قالوا: إن (هل) بمعنى (قد)، والى ذلك ذهب الزجاج في قوله: " ومعنى (هل أتى) قد أتى على الإنسان، أي ألم يأت على الإنسان حين من الدهر"[٧]، فقد خرجت (هل) عن بابها إلى معنى (قد)، لأنه لابد لها من جواب يقرر ما سبق ولا يوضح ذلك الجواب، سوى (قد)، ملفوظاً بها أو مقدرة، لأنهما بمعنى (نعم). ولا حاجة إلى قولهم: " إن أصل (هل) أن تكون بمعنى (قد) ولكنه لما كثر استعمالها في الاستفهام، استغني بها عن الهمزة.. وهو بعيد" [٨]، كما جاءت (إن) المخففة مع الفعل الناسخ بمعنى (قد) في قوله تعالى ﴿**إن كنا عن عبادتكم لغافلين**﴾ [يونس ٢٩]، أي لقد كنّا[٩]. وقوله تعالى ﴿**إن كان وعد ربنا لمفعولا**﴾ [الإسراء ١٠٨]، و ﴿**تالله إن كدت لتردين**﴾ [الصافات ٥٦]، و ﴿**تالله إن كنا لفي ضلال مبين** ﴾ [الشعراء٩٧].

وحصيلة ذلك فإن (قد) بمعنى (قط) و (ربما) و (لما) و (هل) وقيل: تكون (قد) بمعنى (ما) فينفى بها[١٠]، أو بمنزلتها[١١]، ومجرى السياق وما يقتضيه المقام هو الذي يحدد معنى المفردة داخل التركيب، لأن النظم يجعل علاقات الألفاظ بعضها ببعض مؤثرة على دلالتها في التركيب بخلاف ما تعنيه خارجه فإن (قد) داخل التركيب قرينة زمنية، تبين زمن الفعل وتحدده، وتؤكد وقوع الحدث أو توقع حدوثه أو الشك فيه أو تجدده وعدم ثبوته أو قربه أو تكثيره والمبالغة فيه أو نفيه، لذلك لا تجامع النفي، ولا يكون الماضي بدونها

---

(٦) الكشاف: ٤/ ١٩٤.

(٧) الكتاب: ١/ ١٠٠.

(٨) معاني القرآن للقراء: ٣/ ٢١٣.

(٩) المقتضب: ١/ ٤٤.

(١) الخصائص: ٢/ ٤٦٣.

(٢) الكتاب: ١ / ١٠٠.

(٣) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٢٥٧.

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٤٥.

(٥) ينظر البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٢٢٠.

(٦) ينظر تاج العروس: ٢/ ٤٦٢.

(٧) اللسان: مادة: (قدد).

حالا، وان كانت مع المضارع الواقع حالاً لزمتها الواو[١]، وتجعل نسبة الفعل إلى فاعله تامة محققة توكيدا أو تقليلا أو تقريبا، لأن الزمن لا تحدده الصيغ وحدها.

وقد " انتثرت في كتب النحو القديمة أجزاء من معلومات يتألف من مجموعها مادة مفيدة، فقد ذكروا أن (قد) تفيد التحقيق أي أن الحدث بعدها كائن واقع، والاستقراء يدل على هذا كثيراً... ولم يهتم الدارسون المحدثون بهذه الإشارات المفيدة في كتبهم المدرسية بل جروا على إهمال مسالة الزمان إهمالا تاما واكتفوا بتقسيم الفعل التقسيم المعروف ولم يستقروا نصوص العربية استقراء جديدا ليتوصلوا إلى نحو جديد"[٢]. وإنما صلحت (قد) لإفادة المعاني الزمنية في الأفعال لملازمتها لها، فصارت قرينة لها، وذلك بعد حذف أصل من أصولها، فعدل عن أصل معناها " وذلك أن العرب حذفت من الكلمة حرفاً، إما ضرورة أو إيثاراً، فإنها تصوّر تلك الكلمة بعد الحذف منها تصويراً تقبله أمثلة كلامها، ولا تعافه وتمجه لخروجه عنها، سواء كان ذلك الحرف المحذوف أصلاً أم زائداً. فإن كان ما يبقى بعد ذلك الحرف مثالاً تقبله مثلهم أقروه عليه. وإن نافرها وخالف ما عليها أوضاع كلمتها نقض عن تلك الصورة وأصير إلى احتذاء رسومها"[٣].

فكانت (قد) المخففة حرف معنى فبنى على السكون، وهو الأصل. ويكسر في الوقف للتذكر " فعلى هذا تقول في التذكر (قدي) في قد قام أو قد قعد، وكذلك كل ساكن وقفت عليه وتذكرت بعده كلاهما فإنك تكسره وتشبع كسرته للاستطالة والتذكر"[٤].

واشتركت مع السين وسوف والنونين في تأكيد معنى الفعلية، فكانت حرفاً دالاً على تحقق الفعل، ورافعاً لاحتمال الشك في وقوعه وتثبيتاً للمتوقع منه. وتختص " بالفعل المتصرف الخبري المثبت المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ماضياً كان أو مضارعاً"[٥]. فلم تلزم احدهما لذلك لم تعمل، ولأنها نابت عن معانٍ زائدة على معناها الأول قبل التخفيف فلو عملت لنقض معنى التخفيف لذهاب دواعيه بالعمل فلازمت الفعل، ولم تعمل فيه مثل (أل) في الاسم، فكانت من علاماته، لأن "الفعل: ما حسن فيه (قد)"[٦].

النتائج

١. الاسمية في (قد) تعني الكفاية والحسب، وبنيت (قد) لتضمنها معنى فعل الأمر (اكتف أو انته)؛ لذلك استخدمت اسما له مثل (قط)، وقد تعرب لأجرائها مجرى (حسب) وهو معرب، كما أجرى (حسب) مجرى (قد) فصار غير متصرف.

٢. الحرفية في (قد) تعني إجابة التوقع أو التقريب والتقليل أو التكثير والتوكيد والتحقيق والنفي لذلك لازمت البناء على السكون، وهو الأصل.

---

(٨) ينظر: أوضح المسالك: ٣٣٨.

(١) الفعل زمانه وأبنيته: ٢٦- ٢٧.

(٢) الخصائص: ٣/ ١١٢.

(٣) شرح المفصل: ٩/ ٥٢- ٥٣.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٦٧.

(٥) اللمع في العربية: ٥٣.

٣. (قد) قرينة زمنية تعني الحال ماضيا كان الفعل أو مضارعا وتعني الاستقبال مع الماضي في الشرط.
٤. (قد) تقرب زمنيا الماضي من المضارع والمضارع من الحال، فاشتركت بينهما، لذلك لم تعمل.
٥. (قد) في الفعل كـ(أل) في الاسم، فإنهما يوجبان التعريف وما أشبهه وهو التوقع .
٦. اجتماع اللام و (قد) مع الماضي في جواب القسم يعني القرب وبدون (قد) البعد.
٧. لا تدخل (قد) على الماضي المنفي ، لدلالتها على التجدد .
٨. دخول (قد) على المضارع يعني تحققه، أو تجدده، أو الشك في ووقوعه.
٩. يلزم دخول (قد) على الماضي بعد (إذا) الفجائية وهذا يعني نقل الماضي إلى المضارع المشابه للاسم.
١٠. يلزم دخول (قد) على المضارع الواقع حالا وهذا يعني قرب المضارع من الماضي مع (قد).
١١. هل بمعنى (قد) وهذا يعني أن التقرير والتقريب أقوى في (هل) من الاستفهام.
١٢. لا تدخل (قد) على فعل الأمر، لأن (قد) إخبار وفعل الأمر طلب أو إنشاء.
١٣. ترددت (قد) بين الاسمية والحرفية بالحذف و التخفيف، توليدا للمعاني الجديدة وذلك بالعدول عن معناها الأصلي.
١٤. لم تعمل (قد) في مدخولها، لمشابهتها (أل)، وصيرورتها جزء من الفعل، بدليل عدم اختصاصها بقسم معين من الأفعال، إذ تدخل على الماضي والمضارع، لتكون قرينة زمنية، وانفصل الفعل عن غيره، لأنها لا تدخل إلاّ على الأفعال.
١٥. يؤتى بـ(قد) للتنصيص، على أن مدخولها خبر وليس إنشاء أو دعاء ، وذلك في ألفاظ العقود كبعت واشتريت وزوجت، والدعاء كما في قولهم حفظه الله وقتله الله ، إذ ترفع احتمالات المعاني وتزيل الاشتراك فيما بينها .
١٦. تخفيف المضعف بحذف احد المثلين يولد معنى جديدا، للدلالة على سرعة الحدث، وذلك أن اسم الفعل ابلغ وآكد من الفعل ، و (قد) ابلغ من (قددت) ، لأنه يراد باسم الفعل (قد) سرعة الحدث المجرد. وذلك بخلاف الفعل لأنها لا تتصل بها الضمائر بل تقال بلفظ الإفراد دوما.
١٧. صلحت (قد) لمعاني الاسمية والفعلية والحرفية بالحذف منها، لأنها في الأصل مضعفة، فكانت معربة بالاسمية ومبنية بالحرفية، بحسب التراكيب المختلفة.
١٨. لازمت (قد) الأفعال، لأنها قرينة زمنية لحرفيتها، لأن الحروف هي التي تؤدي المعاني في غيرها، بخلاف (قط) الظرفية التي لازمت معنى الماضي وبنيت على الضم لقطعها عن الإضافة كقبل وبعد.

المصادر والمراجع

١. الإنصاف في مسائل الخلاف، للانباري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٣، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
٢. أنوار التنزيل، للبيضاوي، دار الجيل، ١٣٢٩ هـ.
٣. أوضح المسالك، لأبن هشام، دار العلوم الحديثة، بيروت،١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
٤. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل، ١٣١٩هـ - ١٩٧٣م .
٥. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ط١، مصر، ١٣٠٦هـ.
٦. خزانة الأدب، للبغدادي، دار صادر، بيروت.
٧. الخصائص، لابن سيده، دار الفكر.

٨. الزمن في النحو العربي، للدكتور كمال إبراهيم بدري، ط١، الرياض، ١٤٠٤هـ.
٩. شرح ألفية ابن مالك، لابن الناظم، تحقيق: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
١٠. شرح الكافية، للرضي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١. شرح المفصل، لابن يعيش، دار صادر.
١٢. شرح جمل الزجاجي، لابن هشام، تحقيق: علي محمد عيسى، عالم الكتب، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦ م.
١٣. الصحاح، للجوهري، دار الحضارة، بيروت، ط١، ١٩٧٥.
١٤. علوم البلاغة والمعاني والبديع، احمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥. الفعل زمانه وأبنيته، للدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة.
١٦. كتاب الأفعال، للسرقسطي، تحقيق: د. حسين محمد محمد شرف، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١٧. كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت.
١٨. الكشاف، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
١٩. لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف.
٢٠. اللمع في العربية، لابن جني، تحقيق: حامد المؤمن، مطبعة العاني، بغداد، ط٢، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
٢١. مجمل اللغة العربية، لابن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٢. معاني القرآن، للفراء، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.
٢٣. معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق : نديم مرعشلي، دار الفكر.
٢٤. مغني اللبيب، لابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك، دار الفكر، ط٦، ١٩٨٥م.
٢٥. المفصل في علم اللغة العربية، للزمخشري، دار الجيل، ط٢.
٢٦. المقتضب، للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
٢٧. منهج الاخفش الأوسط في الدراسة النحوية، للدكتور عبد الأمير محمد الورد، ط١، بغداد، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٢٨. نزهة الطرف في علم الصرف، للميداني، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.